

حسابها؛ ولكن يمكن في كل الحالات تحريك الأمور بشكل يغلب فيه الجانب الايجابي على الجانب السلبي، وفي ذلك تقدم الى الامام.

لكن ما حدث في الثلاثينات كان غير ذلك. لم يكن الامر مجرد «استفادة» من الجانب الايجابي (من مساهمة القاوقجي والمتطوعين العرب، مثلاً)، وانما كانت القيادة الحقيقية في يد الزعماء العرب، اي كانت، بشكل غير مباشر، في يد الامبريالية البريطانية. هل كان من الممكن غير ذلك؟

الواقع، ان الاحداث التاريخية هي نتيجة علمية لمجموعة اوضاع وكمونات موجودة واقعياً، وتتفاعل فيما بينها حسب قوانين التحول الاجتماعي. في حالة فلسطين، الامور التي كانت قائمة بعد الحرب العالمية الاولى تلخص بالعناوين التالية: وضع اقطاعي متأثر بالراسمالية الدولية؛ سلطة امبريالية منتصرة في الحرب وتضع يدها على المنطقة العربية، وهي سلطة انتداب بالنسبة لفلسطين؛ غزو استيطاني صهيوني برعاية سلطة الانتداب.

ونتجت عن ذلك مقاومة فلسطينية بطولية، انما بقيادات تقليدية وفي ظل قيادات عربية رجعية؛ كما نتج تقدم مستمر في عملية الاستيطان الصهيونية، وتعميق مستمر لسيطرة القيادة الصهيونية على اليهود الفلسطينيين.

في نفس الوقت، افرزت مجموعة الصراعات التي جرت قوى ثورية بالمعنى العملي الواقعي وبالمعنى العلمي البروليتاري، ولكنها كانت اضعف من ان تؤثر في مجرى الاحداث، فاقتصر تأثيرها على كونها تؤلف مساهمة واعية في مسار النضال الفلسطيني.

اذن، لم يكن ممكناً، تاريخياً، ان يحدث غير ما حدث. فلكي تجري الاحداث بشكل آخر، ينبغي ان تتغير، الى هذا الحد او ذاك، الاوضاع التي نشأت على اثر الحرب العالمية الاولى. لكن يمكن على ضوء تحليل أحداث الثلاثينات الوصول الى النتيجة البديهية، بان الحيز (المعنوي والمادي) الذي يخلق الواقع السياسي العربي لم يكن «ارضاً صديقة». بمعنى، انه حتى تستفيد طبيعة ثورية ما منه، يجب ان تتعامل معه بحذر، والا تقع في مطب الخلط بين «وحدة النضال العربي»، و«تفصيل النضال في بلد عربي ما فوق الواقع السياسي العربي». تلك النتيجة البديهية بقيت صحيحة في الاربعينات بعد الحرب العالمية الثانية (اعتمد الشعب الفلسطيني على الدول العربية من اجل انقاذه، فأدى ذلك الى احتلال بلاده والى تشريده). كذلك، لم يكن ممكناً، حينئذ، تغيير ما حدث. القيادات العربية الاقطاعية - الرجعية، والمجتمعات العربية التي يغلب على اجزاء كبيرة منها الوضع القبلي - الاقطاعي، والامبريالية التي خرجت من الحرب العالمية الثانية منتصرة وتمتلك السيطرة الكاملة على المنطقة العربية، وضعف القوى الطبيعية الثورية، تنظيماً وحجماً، كل ذلك لا يمكن ان ينتج عنه سوى احتلال فلسطين وتشريد سكانها العرب في كل المنطقة العربية، وفي المهاجر البعيدة. لقد أحدث احتلال فلسطين هزات كبيرة في المنطقة العربية يمكن تلخيصها بانها عصفت، الى حد كبير، بالسيادة الاقطاعية - الرجعية ورفعت الى السطح (بصيغ سياسية متنوعة، لا شأن لنا الآن بها) البرجوازية الصغيرة.

ان الخوض في موضوع البرجوازية الصغيرة واسع ولن نتعرض له. لكن لا بد من المرور، باقتضاب شديد، على عدة نقاط اساسية. أولاً: البرجوازية الصغيرة هي بورجوازية، وتتحول، بالاستيلاء على الامتيازات، الى بورجوازية كبيرة (المقصود بورجوازية كبيرة نسبياً،